بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١

للدين أثره فى حياة الفرد والمجتمع ، فهو يضع من المبادئ والقيم ما ينظم علاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الإنسان بالمجتمع الذى يعيش فيه .

والقيم الدينية ليست مبادئ نظرية ، ولكنها سلوك وعمل وواقع حياة ، وهى تتجه إلى تكوين الفرد الصالح ، فإذا تم ذلك تحقق قيام المجتمع القوى السليم ، الذى يتعاون أفراده على البر والتقوى ، وتستقر فيه دعائم الكفاية والعدل والسلام .

والإنسان فى حاجة إلى أن يتعرف هذه القيم على صورتها الحقيقية ؛ حتى يستطيع أن يأخذ بالاتجاه القويم فى الحياة ، ويتزود من هذه القيم بالطاقات التى تمكنه من أداء رسالته فى المجتمع .

ذلك لأن القيم الدينية فى حقيقتها شىء ، وهى فى حياة كثير من المنتسبين للدين شىء آخر . فقد أساء بعضهم فهم القيم الدينية ، فى الفكر أو فى التطبيق ، كما أساء

obeikandi.com

بعضهم الآخر الحكم على هذه القيم ، لأنهم بنوا حكمهم على هذا التطبيق الخاطئ ولم ينظروا إلى الدين فى حقيقته وفى تطبيقه السليم . . .

ومن هنا كانت نقطة الضعف فى أكثر ما يكتب - مثلا - دفاعًا عن الإسلام ، أنه يأخذ الجانب السلبى فى الدفاع ، أو يدافع عن الإسلام بطريقة النفى لا الإيجاب . . .

إنك تقرأ كثيرًا مما يكتبه الذين يتحمسون عن صدق وإخلاص دفاعًا عن الإسلام فى مواجهة الموجات الفكرية والحضارية الغلابة فى هذا العصر ، فتجد المنطلق الذى يصدرون عنه فى دفاعهم أساسه نفى ما يلصق بالإسلام عن جهل أو هوى ، ولذلك يدور دفاعهم حول أمثال هذه المعانى :

- الإسلام لا يتعارض مع حرية الفكر .
- الإسلام لا يقف فى طريق التطور .
- الإسلام لا تناقض بينه وبين العلم .
- الإسلام لم ينتشر بالسيف .

وهذا الأسلوب فى الدفاع عن الإسلام مرجعه إلى عدة عوامل ، منها ما ترسب فى وجداننا من أثر الشعور بتخلف العالم الإسلامى وتفوق الشعوب الغالبة ، ومنها الخلط فى التصور بين الإسلام وواقع المسلمين ، ومنها ما ألصقه به الأعداء من مدسوس الأفكار ، وما حرصوا على تجريده من مدلوله ومعناه .

ولهذا كان هذا الأسلوب فى الدفاع عن الإسلام محاولة لإثبات الذات بطريقة عاجزة أو خاطئة .

طريقة عاجزة عن إدراك الحقيقة التى قام عليها الإسلام عقيدة وشريعة ، وتطبيقًا فى مختلف البيئات الإنسانية ، وعلى امتداد عصور طويلة . . .

وطريقة خاطئة فى عرض هذه الحقيقة على الناس ، فكرًا قويًا واعيًا ، لا يستجدى الاقتناع ولا يتسوله بأسلوب الدفاع ، بل يفرض نفسه بمنطقه الذاتى على العقول والأفكار . وسلوكًا للفرد والجماعة يكون حجة ناطقة لا تحتاج إلى منطق الدفاع ، ولكنها حجة للإسلام ظاهرة لا تحتاج إلى إقناع .

إن قرونًا طويلة قد أضافت إلى الإسلام ما ليس منه ، حتى اختلطت صورته فى حياة أهله وفى أعين غيرهم من الناس .

ذلك إلى واقع المسلمين فى كثير من العصور وكثير من الأقطار ، مما يتخذه الأعداء والجاهلون حجة على الإسلام وليس ظاهرة عرضية فى حياة المسلمين .

لهذا كان الأسلوب العلمى فى عرض القيم الدينية فكرًا وتطبيقًا ، هو الأسلوب الذى يعرض الإسلام مجردًا من كل زيف ، ويربط بينه وبين حياة أهله بمقدار التطابق بين العقيدة والسلوك . . .

وفى هذا الكتاب نقدم صورًا من القيم الدينية وأثرها فى حياة الفرد والمجتمع ؛ مستمدة من مصادرها الأصيلة فى الكتاب والسنة ، ومن خلال التطبيق العملى والواقع الحى لهذه القيم الخالدة ، وفى ضوء ماكشف عنه العلم من حقائق تعمق الإيمان بالله ، وتؤكد هذه القيم فى النفوس .

نقدمها للمجتمع العربى والإسلامى وهو يخوض معركة الحياة ويواجه مشكلات العصر ؛ ليستكمل بها مقوماته الذاتية ، ويتسلح بالعقيدة القوية والفكر المؤمن والسلوك القويم ، وليأخذ دوره ويحمل مسئولياته فى هذه الفترة المليئة بصراع المبادئ وتحديات القوى ، وليكون هذا المجتمع العربى والإسلامى الذى يضم مئات الملايين فى مختلف أرجاء الأرض ، والذى تجمعه عقيدة واحدة حول قبلة واحدة ، هو بحق المجتمع الذى وصفه الله – تبارك وتعالى – بقوله :

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[1] .

ولماذا كانت القيم الدينية هى وحدها الكفيلة بسعادة الإنسان وإرساء دعائم المجتمع الذى تتوافر فيه الكفاية والعدل والسلام ؟

ذلك لأنها وحى من عند الله الذى خلق الإنسان وأكرمه بالخلافة على هذه الأرض . فهو – جل جلاله – أعلم بما يصلح عليه أمر الإنسان وحياة المجتمع :

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟﴾[2] .

ومن هنا كانت كل محاولات الفكر الإنسانى – خارج نطاق التشريع الإلهى – قاصرة عن تقديم المنهج المتكامل لحياة الإنسان والمجتمع حياة سعيدة فاضلة . ومن هنا أيضًا نجد أكثر الشعوب المتحضرة بهذا المقياس ، هى أكثرها تعرضًا للتمزق النفسى والانهيار الخلقى واندفاعًا نحو هاوية الصراع بين الأفراد والشعوب .

* * *

وحين بدأت الأمة العربية تأخذ طريقها لاكتشاف ذاتها وتأكيد انتمائها ، كان لابد من أن تهتدى إلى أصولها العريقة فى الفكر الحضارى المستمد من شريعة الله . ولم يكن هذا الطريق ميسرًا للرواد من سالكيه وللطلائع المكافحة فى كل ميادين التحرر وإثبات الذات ، لأنهم كانوا يشقون طريقهم وسط ركام ثقيل من الرواسب الفكرية التى فرضت على الأمة العربية خلال قرون متعاقبة ، ومنها ما فرضه المستعمر خلال العصور الأخيرة ، وبمقدار ما فرضه ودسه من هذه الأفكار

(١) الآية ١١٠ سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٤ سورة الملك .

الدخيلة ، فإنه سلب الأمة العربية الكثير من مقوماتها الأصيلة فكانت ضربته فى اتجاهين نحو هدف واحد.

وكان أخطر ما فى الأمر أن استولى الوهم على الأمة العربية فى عصور الاستعباد والتخلف ، والشعور بالانبهار إزاء هذه الأفكار والقيم الأجنبية ، والاعتقاد بأنها السبيل الوحيد لبلوغ ما وصل إليه المستعمر من قوة وغلبة وحضارة . وقد وقع فى هذا الوهم الكثيرون ، ومنهم بعض قادة الفكر وحملة الأقلام ، حتى إن أحدهم لم يتردد عن القول بأننا إذا أردنا أن نبلغ ما بلغه العالم المتحضر فلابد أن نأخذ المدنية الغربية بما فيها من خير وشر.

وهذا وهم لم تقع فيه شعوب أخرى عرفت طريقها السوى لبلوغ أهداف التحرر والتقدم ، مثل الشعب اليابانى الذى لم يمنعه التزامه بقيمه وتقاليده وأسلوب حياته ومكونات شخصيته ، عن أن يأخذ من أسباب التقدم الحضارى ما جعله من أقوى الدول الصناعية وأغناها ، وأن ينافس الدول المتحضرة الكبرى فى ميادين الإنتاج والاقتصاد.

ولابد أن نشير هنا إلى أن كثيرًا من الأفكار الهدامة المدمرة لكيان الشعور ، هى وليدة خطة صهيونية تضمنتها « بروتوكولات حكماء صهيون » وهى أفكار تقوم على تدمير إنسانية الإنسان عن طريق الإلحاد وعبادة المادة والانغماس فى اللذة وتملق الغرائز الهابطة على مختلف الصور ، وتسخير المخترعات الحديثة لتحقيق ذلك : السينما والإذاعة المسموعة والمرئية ، وما تحمله من الكلمة والصور واللحن ومختلف وسائل الإخراج ، إلى غير ذلك من خطط الإفساد التى تنفثها المؤسسات الأخرى ومنها بيوت الأزياء ودور الإغراء والإغواء التى تلبس أقنعة الفنون.

وكذلك كانت الصهيونية وراء ترويج كل فكرة أو نظرية هدامة ، وتأليه أصحاب هذه النظريات والأفكار : دارون ، ماركس ، فرويد نيتشه . . .

وغيرهم ممن بدأت تتكشف عورات أفكارهم وتسقط دعائم نظرياتهم وتفقد ما كانت تبهر به الأبصار والعقول من بريق .

ولقد أصبح جليًا ما لهذه الخطة « الجهنمية » من أخطار تهدد كيان الأمم والأفراد من الداخل ، وتقضى عليها بالانحلال والسقوط ، وتفرض عليها الهزيمة فى كل ميدان . .

ولهذا كان لزامًا على الأمة وهى تستجمع قواها وتعيد بناء كيانها وتواجه تحديات أعدائها ، أن تستمد من مقوماتها الأصيلة عناصر هذه القوة ولبنات هذا البناء وأسلحة هذه التحديات .

وفى القيم الدينية معين لا ينضب من هذه المقومات ، وذخيرة لا تنفد لتحقيق هذه الأهداف . . .

° ° °

وثمة مزالق يقعُ فيها البعض بحسن نية وهم يحاولون أن يحصلوا على تصور « مقنع » للقيم الدينية بأسلوب العصر .

منهم أولئك الذين يحاولون باسم التفسير العلمى للقرآن ، تأويل بعض آياته أو تحميلها بما تؤيده بعض الشواهد العلمية . وتلك قضية أمكن حسمها فى غير عناء ، واستدلالا بمنطق العلم نفسه الذى يقوم على الفروض والتجارب ، ويخضع لتغير المقاييس واختلاف النتائج ، مما لا يعطى حكمًا قاطعًا تكتب له القداسة والخلود . .

ومنهم أولئك الذين يحاولون أن يرجعوا بعض المصطلحات والنظريات العصرية إلى أصول لها فى الإسلام ، فنسمع من يتحدث منهم عن « اليسار فى الإسلام » أو « ديمقراطية الإسلام » أو « اشتراكية الإسلام » إما دعمًا لهذه النظريات بمنطق الدين ، وإما بقصد عرض الدين فى زى عصرى حديث !

obeikandi.com

ووجه الخطأ فى هذا الأسلوب أن الإسلام منهج متكامل له أصوله ومبادئه ، وقد يلتقى مع كثير من المبادئ والنظريات التى تقدس كرامة الإنسان وحريته ، ولكنه يمتاز عنها بشموله وبأنه منهج « إلهى » يمد الفكر الإنسانى بعطائه السخى الذى يلبى جميع احتياجاته ، ويحفزه إلى مواجهة الحياة على هدى هذه الأصول والمبادئ ، لبلوغ الآفاق التى يرقى إليها الجهد الإنسانى فكرًا وسلوكًا . وليس الأمر على الصورة الأخرى التى يستمد فيها الدين أو يتقيد بنظريات تتناول جانبًا أو جوانب محدودة من الحياة ، وتتعرض من خلال التطبيق لكثير من التناقضات وضرورة التعديل والتبديل . . الأمر الذى يختلف اختلافًا جذريًا عن طبيعة المنهج الدينى الذى يتسم بالشمول والخلود .

إن أولئك وهؤلاء يحاولون أن يحاكموا الدين إلى هذه الأفكار ، أو إلى ما يقعون تحت سلطانه من أهواء . وقد حسم الرسول ﷺ هذه القضية بقوله :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » .

لا حجرًا على العقول ، ولكن رجوعًا إلى الحق الذى لا تضل معه الأهواء ، ولا يصلح إلا عليه أمر الدنيا والآخرة .